كتاب

الذريعة إلى مكارم الشريعة

لأبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل
المعروف بالراغب الأصفهاني
(المتوفى ٥٠٢هـ)

تحقيق ودراسة
أ.د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي
الأستاذ بكلية دار العلوم جامعة القاهرة

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار
الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية

الراغب الأصفهاني ، الحسين بن محمد بن المفضل ،
٠٠ - ١١٠٨ .
كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة / لأبي القاسم الحسين
ابن محمد بن المفضل [الراغب الأصفهاني . مستعار] ؛
تحقيق ودراسة : أبو اليزيد أبو زيد العجمي . - ط١ - .
القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ،
[٢٠٠٧م] .
٣٦٨ ص ؛ ٢٤سم .
تدمك ١ ٤٣٩ ٣٤٢ ٩٧٧ .
١ - الأخلاق الإسلامية . ٢ - الشريعة الإسلامية .
أ - العجمي ، أبو اليزيد أبو زيد (محقق) .
ب - العنوان .
٢١٢

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية .
الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +) .
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +) .
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +) .
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +) .
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩ .
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

حتى يتعودها وإن كان قد قيل : ترك العادة شديد .

والثالث : أن يعتقد في الباطل والقبيح أنه حق وجميل وتربى على ذلك ، ومداواة هذا أصعب جدًّا ، فقد صار ممن طبع على قلبه ؛ إذ قد تنقش بنقش خسيس ككاغد كتب فيه ما يؤدي حذفه منه إلى خرقه وفساده .

والرابع : أن يكون مع جهله وتربيته على الاعتقاد الفاسد شريرًا في نفسه يرى الخلاعة وقهر الناس فضيلة ، وذلك أصعب الوجوه ، وإلى نحوه قصد من قال : من التعذيب تأديب الذئب ليتهذب ، وغسل المسح [1] ليبيض .

فالأول من هؤلاء الأربعة يقال له : الجاهل ، والثاني يقال له : جاهل وضال ، والثالث يقال له : جاهل وضال وفاسق ، والرابع يقال له : جاهل وضال وفاسق وشرير .

الارتقاء في درجات الفضائل والانحدار عنها إلى أقصى الرذائل

للإنسان في منازل الفضائل مرتقى صعب ومنحدر سهل ، وعلى الارتقاء فيها حث ربنا تبارك وتعالى بقوله : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] وبقوله : ﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ ﴾ [البقرة : ١٤٨] ، ومدح قومًا بقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦١] .

وعن الانحدار منها نهى بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة : ٢١] وبقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ ﴾ [النحل : ٩٢] ، وذم قومًا شأنهم ذلك بقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾ [محمد : ٢٥] ، وبقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ [محمد : ٣٢] ، وبقوله : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا ﴾ [النحل : ٧٠] ، فإن الآية تقتضي هذا المعنى وإن كان ظاهرها يدل على الجهل

(١) المسح هو كساء من الشعر ، وهو ثوب الراهب ، وهو الحارة من الأرض ، وغسل الأسود منها لا يحيله أبيض - المعجم الوسيط (٢/٨٧٥) .

الذي يورثه الهرم [١] .

فالخيرات يترقى فيها فيبلغ إلى أشرف المنازل بأربع درجات ، وينحدر عنها فيبلغ إلى أرذل المنازل بأربع درجات .

فأما درجات الارتقاء :

فأولاها : أن يرتدع الإنسان عن المآثم ويهجرها ، ويندم عليها ، ويعزم على ترك معاودتها ، وذلك أول درجة التائبين المطيعين لله ورسوله .

وثانيها : أن يقوم بالعبادات الموظفة عليه ، ويسارع فيها بقدر وسعه ، وذلك درجة الصالحين .

وثالثها : أن يتحرى بعلمه الحقيقي تعاطي الحسنات من غير تلفُّتٍ منه إلى المحظورات بمجاهدة هواه ، وإماتة شهواته ، وذلك منزلة الشهداء .

ورابعها : أن يكون مع هذه الأحوال المتقدمة يرضى ظاهرًا وباطنًا بقضاء اللَّه وقدره فلا يتزعزع تحت حكمه ، ولا يتسخط شيئًا من أمره ، ويعلم أن اللَّه تعالى أولى به من نفسه ، وذلك درجة الصديقين .

وهذه المنازل الأربع هي المراد بقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٩] .

وأجدر أن تكون هذه المنازل الأربع هي المأمور بها في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

واعلم أن منزلة الرضا أشرف المنازل بعد النبوة ، فمن رضي عن اللَّه فقد رضي اللَّه عنه ؛ لقوله تعالى : ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ﴾ [البينة : ٨] فجعل أحد الرضائين مقرونًا بالآخر ، فمن بلغ هذه المنازل فقد عرف خساسة الدنيا ، واطلع على جنة المأوى ، وخطب مودة الملأ الأعلى ، وحظي بتحيتهم المعنية بقوله تعالى : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٣، ٢٤] .

---

(١) ذكر بعض المفسرين أن سن أرذل العمر الذي روي عن علي فيه أنه خمس وسبعون سنة ، في هذا العمر يحصل ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم ؛ ولذا قال : ﴿ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ [النحل : ٧٠] ، أي بعد علمه أصبح لا يدري شيئًا ؛ ولذا استعاذ الرسول ﷺ - كما في حديث البخاري - من الهرم ، ابن كثير : تفسير سورة النحل : ظلال القرآن (٢١٨٣/٤) دار الشروق .

الذي يورثه الهرم (١) .

فالخيرات يترقى فيها فيبلغ إلى أشرف المنازل بأربع درجات ، وينحدر عنها فيبلغ إلى أرذل المنازل بأربع درجات .

فأما درجات الارتقاء :

فأولاها : أن يرتدع الإنسان عن المآثم ويهجرها ، ويندم عليها ، ويعزم على ترك معاودتها ، وذلك أول درجة التائبين المطيعين للّه ورسوله .

وثانيها : أن يقوم بالعبادات الموظفة عليه ، ويسارع فيها بقدر وسعه ، وذلك درجة الصالحين .

وثالثها : أن يتحرى بعلمه الحقيقي تعاطي الحسنات من غير تلفُّتٍ منه إلى المحظورات بمجاهدة هواه ، وإماتة شهواته ، وذلك منزلة الشهداء .

ورابعها : أن يكون مع هذه الأحوال المتقدمة يرضى ظاهرًا وباطنًا بقضاء اللّه وقدره فلا يتزعزع تحت حكمه ، ولا يتسخط شيئًا من أمره ، ويعلم أن اللّه تعالى أولى به من نفسه ، وذلك درجة الصديقين .

وهذه المنازل الأربع هي المراد بقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء : ٦٩] .

وأجدر أن تكون هذه المنازل الأربع هي المأمور بها في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

واعلم أن منزلة الرضا أشرف المنازل بعد النبوة ، فمن رضي عن اللّه فقد رضي اللّه عنه ؛ لقوله تعالى : ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾ [البينة : ٨] فجعل أحد الرضائين مقرونًا بالآخر ، فمن بلغ هذه المنازل فقد عرف خساسة الدنيا ، واطلع على جنة المأوى ، وخطب مودة الملأ الأعلى ، وحظي بتحيتهم المعنية بقوله تعالى : ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٣، ٢٤] .

---

(١) ذكر بعض المفسرين أن سن أرذل العمر الذي روي عن علي فيه أنه خمس وسبعون سنة ، في هذا العمر يحصل ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم ؛ ولذا قال : ﴿ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ ﴾ [النحل : ٧٠] ، أي بعد علمه أصبح لا يدري شيئًا ؛ ولذا استعاذ الرسول ﷺ - كما في حديث البخاري - من الهرم ، ابن كثير : تفسير سورة النحل : ظلال القرآن (٢١٨٣/٤) دار الشروق .